توطئة

القرآن الكريم كتاب الله المنـــزل على قلب محمد ﷺ، ليسترشد به الجنس البشري، وليستقرَّ عليه الكون والوجود، وعليه تقوم قيامة العالم، وبه يشقى مَنْ يشقى، ويسعد مَنْ يسعد:

والقرآن يرفعنا فوق العالم إلاَّ أنه لا يطلب منَّا الانسحابَ منه، ويعلو بنا فوق الكون في الوقت الذي يريد منَّا أنْ نتنبَّه لأقلّ جزئياته بداهةً وأُلفةً، ويغوص بنا إلى أعماق موغلة في الإنسان لنصغي معاً لأَخفى أنَّات روحه، وأوهن أوجاع قلبه.

وإلى مناطق بكرٍ غير مكتشفة من قارَّات الروح يأخذنا "القرآن" ويرتاد بنا أبعاداً هائلة، وقِمَماً عالية جداً، ثم يحذرنا من الالتفات إلى الوراء وإلاَّ دار رأسنا وربما هوينا من شواهق ما وصلنا إليه إلى سحيق وديان ما كُنَّا فيه. وهو يسمو بوجداننا فوق العقل إلاَّ أنه يظلُّ يذكّرنا بأنه -أي العقل- معراجنا مع الوجدان في هذه الفوقية، ويخترق بنا آماد الزمان والمكان حتى لنكاد نشعر بأمواج الأبدية وهي تضرب شواطئَ أرواحنا، وتنساب إلى دواخلنا، وفي برزخٍ بين أن نكون -بشراً سوياً- أو ألاَّ نكون، يوفقنا القرآن لنرى رأينا ونحزم أمرنا.

وشتيت الروح، وانقسامات النفس، وتشعّبات الفكر، وزائغات النظر، تجد في القرآن ما يلمُّ الشتات، وَيُوْحِّدُ الشعَبَ، ويجمع المقسَّمات، ويعيد للبصر وحدة النظر ليزداد حدَّةً وقوةً فيرى "اللاَّمرئي" فينا، "واللاَّمرئي" في

الكون والوجود، وهو يعلمنا أنَّ مَنْ لم يكن واحداً في ذاته، كلاًّ في فكره، جمعاً في وجدانه، فلن يكون له نصيب من تجليات أنوار الواحدية والأحدية، لأنَّ الإيمان الحق، هو الإيمان الذي ينبعث عن الكياني الإنساني كُلِّهِ، والقرآن –بعد ذلك– ينبوع قوة يتدفق من قوىً غيبية ليستقوي به الضعفاء، ويحيا به الأموات، وهو العقل المبعوث لجنون كل الأعصار، وشعاع الروح الأزلي فوق ظلمات القلوب والنفوس، فكلماته محّملة بسحائب الحياة، وآياته تقطر أنداءَ جمالٍ وجلالٍ، وبمقدار ما يجهل الإنسان منه يكون جهله بنفسه وبالكون وبالوجود من حوله، إنه باعث غريزة التوحيد وفطرته من كوامن الإنسان، وهو عين العالم وقلبه، كم من عقلٍ غَيَّرَ، وكم من روح سما بها، ووجدان ارتفع به، إن قوانين الفطرة ونواميس الكون تتألقان في سماء كلماته وآياته، وفي ثناياه يرقد العقل كله، ومنه تُسْتَنْشقُ أنفاسُ الحياة، وفيه تأتلف قوى الطبيعة والفضيلة، ويغوص الكُلُّ في فيض من الحب الإلهي، وهو يعزّز قوى الحواس، ويفتح نوافذ الخيال، ويؤجج ثورة عشق في سويداء القلوب والأرواح، أما نبلاء الفكر فإنهم يجدون فيه النبل كلَّهُ، والشهامة كلَّها، والعظمة كلَّها... وكمْ من خيالٍ فَتَنَه، ومِذْواقٍ سحره، وبلاغةٍ ركعتْ لبلاغته.

لقد مَزَّقَ القرآنُ أكفانَ الصمت عن النُّبوات السابقة، وأقام الأنبياء السابقين من مراقدهم، واستنطقهم ليقولوا كلمة الحق في محمد ﷺ، وليأنس بأنفاسهم، ويتأسَّى بسيرهم وبما لاقَوْه من عَنَتِ أقوامهم، وما صبّوه عليهم من نُكْرٍ وعذاب.

لقد هَزَّ محمد ﷺ بنداءاَته قلب السماء فانتفضتْ حتى غدت جعبة سهام نارية تنطلق لتصميَ أفئدة الشياطين وأتباعهم من المشركين، أينما وجدوا وحيثما كانوا.

وبين قلب محمد ﷺ وقلب الكعبة عشقٌ متبادلٌ عميقٌ موغلٌ في القدم،

فهو توأمها في الوجود الغيبي، وهي شطر ذاته، وبعض أجزاءِ جوهر حقيقته في مرايا عالَمِ المثال، ويومَ وَضَعتْ مكةُ وديعتها الغالية بين يدي العالَمَ غَطَّت الكعبةَ سحائبُ أسَىً لما ستأتي به الأيام القابلة من فرقة وافتراق قدري لا مناص من وقوعه قبل أن يسمح القَدَرُ وبعد سنين من الكفاح المتواصل بالوصال من جديد.

* * *

هـــذه -أخي القارئ- بعضٌ من أفكار ومشاعر ومعانٍ جاءت على صفحات هذا الكتاب، وأُريد أن أُنبِّه إلى أَنَّ مؤلف الكتابً العالم الكبير الأستاذ فتح الله كولن لم يزعم أنه في معرض التفسير لما تناوله من آيات قرآنية، على الرغم من امتلاكه لكل شروط المعرفة التفسيرية و أدواتها. وكُلُّ الذي فعله أنه سَجَّلَ في هذا الكتاب ما تلقاه من وَمَضاتٍ والتماعات وإشارات من بعض مَا تَألّقَ في سماء وجدانه المرهف من نجوم القرآن، ومع ذلك فإنه لم يغفل تماماً آراء المفسرين في الآيات التي عرض لها، غير أنه توسع بعض الشيء فيها، وانقدحت في خاطره أفكارٌ وَمَعَان جديدة مضافة، تحتملها الآية من حيث تركيبها اللغوي والبلاغي، ولا تشتطُّ أبداً في الابتعاد عن أصول التفسير وقواعده المعروفة. ولا شك أنَّ هذه الخطرات أملتها ظروف العصر، وظروف الدعوة الإسلامية المعاصرة، وأوحت بها معارف العصر وعلومه وتوجهاته الفكرية والروحية، ورحم الله النورسي الذي قال: "إنَّ الزمان أكبر مفسّر للقرآن". وأنا على ثقة من أن هذه الخطرات حول بعضٍ من آي القرآن الكريم سوف تجد لها صدىً واسعاً في فكر القارئ العربي ووجدانه، فترجمة هذه الأعمال الدعوية والفكرية للأستاذ "فتح الله" إلى العربية عملية تنشيطية للأفكار، وهي تبادل معرفي جيد بين عقول المعنيين بشؤون الإيمان وقضايا الإسلام هنا في تركيا وهناك في العالم العربي.

جزى الله عنا الأستاذ الفاضل فتح الله كولن خير الجزاء، وآمل من رحمة

obeikandl.com

الله القدير أن يجعل ذلك في صحائف عمله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ مَنْ أتى الله بقلب سليم.

هذا والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أديب إبراهيم الدباغ

obeikandl.com

فهم خاص للقرآن الكريم

"عن أبي جحيفة قال: قلت لعليٍّ رضي الله عنه: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلاّ كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يُقتل مسلم بكافر".[1]

الحمد لله والصلاة والسلام على من أنــزل عليه القرآن وعلى آل وصحبه أجمعين.

من النادر القيام بالتوحيد بين العلم المجرد والنظري وبين الحركة الدعوية، بل يرى بعضهم استحالة هذا. لا شك أن وجهة النظر هذه تحمل نصيبا من الحقيقة. ولكن يجب ألا ننسى الاستثناءات. وهنا يضيف الشيخ فتح الله كولن -الذي يعد من رجال الدعوة والحركة الإسلامية- كتابا جديدا إلى كتبه السابقة التي تزيد على عشرين كتابا.

هذا الكتاب الذي أعطى له عنوان "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" هو حول تفسير القرآن. وهو يتناول بعض الآيات -حسب تسلسلها في القرآن- ويشير إلى النكات والدقائق الموجودة فيها. ويتبين من النظرة الأولى أن المؤلف ملم إلماما جيدا بالتفاسير القديمة والتقليدية. ولكننا نرى أنه يفتح

(١) البخاري، العلم ٣٩، الديات ٣١؛ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ١٧٩/٢.

مجالات أخرى، ويقدح شرارات ويومض ومضات تفسيرية دون المساس بأي مقياس من مقاييس علم التفسير أو الإخلال به. وهذا هو ما قصده المؤلف عندما جعل اسم كتابه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان".

وبينما ازدادت وتيرة التخصص في عصرنا هذا، فإن المختصين يشعرون بالحاجة إلى إيصال نتائج بحوثهم إلى قطاعات واسعة من الجماهير. وهذا الطراز من النشريات يدعى في الغرب (Vulgarization) أي أسلوب تبسيط المواضيع الاختصاصية وجعلها في متناول الجماهير، وهو سمة من سمات عصرنا. وتكون هذه الحاجة اشد في موضوع العلوم الدينية التي تهم جماعات واسعة من الجماهير بشكل مباشر. ولو قام حاليا أي عالم ليضع تفسيرا على غرار تفسير الزمخشري أو الرازي أو البيضاوي أو النسفي أو أبي السعود لما حظي كتابه بالسعة المطلوبة بين القراء. لذا كان عليه أن يتنـــزل إلى مستوى مخاطبيه ويختصر المصطلحات العلمية إلى الحد الأدنى.

والكتاب الموجود بين أيديكم الآن هو من هذا النوع من الكتب، لأن المؤلف الكريم تناول هذا الموضوع في كتابه هذا بحيث يستطيع الشخص المتوسط الثقافة فهمه. ولكن تظهر الحاجة في بعض الأحيان لاستخدام بعض المصطلحات الفنية، مما يكون حافزا للقارئ غير المختص لهذه المصطلحات إلى توسيع أفقه وثقافته بعض الشيء. فمثلا على الرغم أن مثل هذا القارئ قد لا يفهم ما جاء من دقائق في تفسير الآية الثانية من سورة البقرة من ناحية المصطلحات النحوية والبلاغية، ولكنه سيفهم أن مفهوم الهداية الواردة في الآية الثانية والخامسة من سورة البقرة هو جواب لطلب الهداية الواردة في سورة الفاتحة. وقد يتساءل: مع أن القرآن مرسل إلى الناس جميعا فلماذا تقول هذه الآية أنه مرسل للمهتدين فقط؟ لذا نرى المؤلف يقول: نعلم بأن هذا الكتاب -الذي لا توجد فيه ذرة من الشك والريبة- هو مصدر الهداية للمتقين... للمتقين فقط لأن نفوسهم خلت من الشبه والريب، وتوجهت

قلوبهم وأرواحهم لتقبل الحق ورعاية أوامر الله وشريعته الغراء. والنتيجة التي يخلص إليها هي: بما أن هؤلاء المتقين هم الذين يستفيدون من القرآن حق الاستفادة إذن يبدو وكأن القرآن قد أرسل إليهم وحدهم.

ومن المفيد هنا نقل تحليل جميل من الكتاب لنفسية الكافر والمنافق: "نظراً لكون المنافقين يعيشون بين المسلمين ويختلطون بهم، لذا تتيسر لهم أحيانا لمحة من نور الإيمان. ولكن النفاق المتغلغل في قلوبهم ورؤوسهم يمنعهم من الاستفادة من هذا النور. أجل!... إن هؤلاء المنافقين قد انقلبوا إلى وضع لا يبصرون فيه، مع أن عيونهم مفتوحة، إما بسبب عدم الاهتمام بنور المشعلة التي يحملها الرسول الأكرم ﷺ في يده، أو الاستهانة به، أو بسبب قيامهم بافساد استعداداتهم الفطرية. ولكنهم مع هذا يواجهون نور المشعلة الذي يأخذ بالابصار، وبدلا من النظر إليه بعين الإيمان نراهم يقومون -بشكوكهم وترددهم- بتحييد القوة النابعة في أرواحهم وبازالة تأثيرها. حتى إن كلمة "استوقد" تشير إلى أنهم كانوا يخططون لكيفية قلب هذا النور إلى نار محرقة.

أما الكفار فلم يتعرفوا على الإيمان وعلى النور المنبعث منه أبدا... لم يروه أبدا، ولم يدخلوا في جوه القدسي. لذا عندما أحس الكافرون -لهذا السبب أو ذاك- بهذا النور في وجدانهم "باستثناء المعاندين منهم" حاولوا التمسك به وقضاء بقية حياتهم كمؤمنين مخلصين. ولا شك أن للفرق بين النور والظلام وبين الإيمان والكفر دورا كبيرا في هذا. فالذين كانوا مهتمين من قبل بأشياء أخرى عندما رأوا هذا النور دخلوا إلى عالم جديد... عالم يحف به جمال الإسلام وجاذبيته. لهذا عندما نقارن بين الذين يسمعون عن الإسلام ويتعرفون عليه للمرة الأولى ويؤمنون به ويعيشونه، وبين المسلمين المولودين في البلدان الإسلامية "إلا القلة منهم" يفهم بشكل واضح صحة ما قلناه أعلاه.

وإضافة إلى قيام المؤلف بالإشارة إلى الناحية اللغوية والبلاغية، إلا أنه اهتم أكثر بمعاني الآيات وبغاياتها، فلنقرأ مثلا ما أورده عند تفسيره أحد أسماء الله ال الحسنى وهو "بديع السماوات والأرض":

"يأتي فعل "بدع" في اللغة العربية بمعنى الإيجاد والخلق دون وجود مثال أو أنموذج سابق. وتعرض الأرض والسماوات التي لا حد لسعتهما أنموذجا للجمال الفريد الذي لا يمكن أن يشبع الإنسان منه. أي هي من الكائنات والمخلوقات العجيبة التي لم يسبق وجود أنموذج لهما من قبل. فهي مذهلة ومدهشة، ولا يمكن أن يكون هناك أكثر منهما جمالا وجاذبية لعدم وجود مثال سابق لهما من جهة، ولطبيعة مادتهما الأصليتين وهيئتهما الحاليتين وهما يشيران ويومئان بمليارات من الإشارات النورانية إلى خالقهما ومبدعهما.

أجل!... خلقت الأرض والسماوات جميعا بكل ما فيهما وبكل جمالهما وجلالهما الأخاذ، وبكل اسرارهما، بدرجة الكمال الذي لا كمال فوقه، ودون أي نقص أو قصور بكلمة "كن" من قبل خالقهما. وهما ليستا أجزاء جاءت وانفصلت منه، وليست ظهورا له. لأن العلاقة بين الكون وبين مبدعه تبارك وتعالى هي علاقة الخالق بالمخلوق. أي أن هذه العلاقة ليست ولادة منه أو صدورا عنه أو ظهورا حتميا وغير إرادي له. وعلى فرض المستحيل لو كانت هذه هي العلاقة لما كان كل هذا الصدور والظهور معرضا للتفتت والتجزؤ والنفاد مثل نفاد وقود الشمس في يوم من الأيام. بينما يخلق كل شيء ثم ينمو ويتطور ثم ينمحي ويذهب ويفنى، ثم يعقب هذا الفناء وجود آخر بنفس الجمال والجاذبية... أجل!...كل شيء يأتي واحدا إثر آخر، ثم يرحل واحدا إثر آخر. ولكن يبقى بديع السماوات والأرض وحده دون زوال أو تحول أو فناء.

وعندما يتكرم الله تعالى ويهب نور الحياة للقادمين، فهو يعبر لأولي الألباب عن معنى الوجود. وعندما يأتي القادمون الجدد بنفس النعم المهداة

إليهم "بعد ذهاب ما قبلهم من الزائلين"، فهو إشارة إلى أبديته وأزليته.

على المسلم –لكي يستفيد الإستفادة القصوى من القرآن– أن يفكر كيف يقرأ القرآن. هناك القليل من يفعل هذا والقليل ممن يطبق ما يقال وينصح في هذا الخصوص. وتناول الإمام الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" والعلامة سعيد النورسي في كتابه "المكتوبات" هذا الأمر بعمق. وقد أحس المؤلف الكريم "الشيخ محمد فتح الله كولن" بالحاجة إلى تأكيد هذا الأمر، لذا نراه يقدم طريقة معينة في كيفية قراءة القرآن وفهمه فيقول:

"... ونستطرد هنا فنقول بأنه مهما بدا أن دعاء نوح عليه السلام على قومه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (نوح: ٢٦) يناقض ظاهريا ما قلناه آنفا، إلا أنه ليس كذلك. لأنه من المحتمل أن نوحًا عليه السلام قال هذا على "اعتبار ما سيكون"، وأنه كان يعرف طبيعة ذلك المجتمع الذي قضى فيه كنبي أعواما طويلة. ويحتمل أنه حدس الرغبة الإلهية، أو أنه أوحي إليه هذه الرغبة والمراد الإلهي فدعا بذلك الدعاء. لأن هذا هو الخلق العام للأنبياء العظام في الغالب.

ثم يجب الوقوف حول عما إذا كنا نحمل هذه القصص محمل الحقيقة أم لا. لأننا نعتقد أن هذه القصص ليست قصصا رمزية، بل هي حوادث وقعت حقيقة، ونقلها القرآن لنا.

ثانيا إن الله تعالى بقصه علينا هذه القصص يشير إلى بعض الحقائق الكونية الجارية حتى قيام الساعة. أي هي جارية منذ وجود آدم عليه السلام حتى آخر رجل في هذه الدنيا. لأننا عندما ننظر إلى العناصر التي يستعملها القرآن نراها غير مختصة بزمن معلوم أو مكان معلوم. وهذا هو المنتظر أصلا من كتاب كوني. ولكن لكي نستطيع النظر إلى القرآن هذه النظرة يجب متابعة آياته ضمن إطار خاص. بل يمكننا القول أن هذا هو الشرط الوحيد للاستفادة الحقيقية من القرآن. والشيء الآخر إن الآيات سواء أكانت في

حق الكافر أم المنافق أم اليهود أو النصارى، وكانت أسباب النـــزول تشير إلى هذا الأمر أو ذاك، فإن كل فرد -وهو يقيم علاقات عقلية ومنطقية وشعورية ووجدانية مع نفسه ومحيطه في زمان أو في مكان معين- يستطيع تلقي رسائل غضة وجديدة من القرآن ويحسها في أعماق نفسه. وبتعبير آخر فعلى الفرد أن يقول لنفسه: "صحيح أنني لست بنبي، ولكني أشعر أن آيات القرآن البالغة ستة آلاف ونيف كأنها قد نـــزلت عليّ". وفي نهاية المطاف أليس هذا هو روح القضية وأساسها؟ وهل يمكن حصر الله تعالى -حاشا لله- في زمن أو مكان معينين؟ إذن فالقرآن الكريم الذي هو تجلي صفة الكلام عنده تعالى كما خاطب الرسول ﷺ فكأنه يخاطبك ويخاطبني كذلك، ويخاطب كل من يأتي من بعدنا. أي هو يخاطب الإنسانية جمعاء. وهذا الأمر مهم من ناحية شمولية القرآن وكونه فوق الزمان والمكان. وإلا فإن الإنسان ينظر إلى هذه الحوادث الواردة في القرآن وكأنها قصص ماضية. ومثل هذه النظرة في قراءة القرآن يقلل نسبة الاستفادة منه كثيرا."

والقارئ المدقق سيلاحظ دون شك كيف أن المؤلف قام بمزج بارع لعلم البلاغة والفكر وتقييم أسباب النـــزول مع زاوية نظره إلى القصص القرآنية، مع التأكيد على شمولية القرآن، أي على كونه صالحا لجميع الأجيال القادمة. أي أن كلا من المتخصص في علم التفسير والقارئ العادي يســـتطيع الاستفادة من هذا الكتاب.

كما يقوم المؤلف في صدد فهم القرآن بمراجعة رسائل النور والإشارة إليها إما ضمنا أو صراحة.

نستطيع اعطاء مثال على كيفية قيامه بتفسيرات جديدة وتقديم نظرات جديدة إضافة إلى استفادته من التفاسير القديمة والتقليدية بما أورده لتفسير ﴿مَوَاقِعَ النُّجُومِ﴾ (الواقعة: ٧٥) وتخصيصه حيزا طويلا له. يقوم باستعراض جميل للأوجه المختلفة في تفسير هذه الآية. والقصد هنا تناول الرسول ﷺ

والأنبياء الآخرين عليهم السلام، والنجوم، وايداع آيات القرآن لجبريل الأمين، وكون نجوم القرآن -أي مقاطع وحيه- وآياته كل في مكانها الصحيح، وأن الصدور الطاهرة للمؤمنين هي مكان ومستودع نجوم القرآن....الخ من التفاسير المنيرة واللامعة لمعان النجوم. وفي بداية تناوله للموضوع نراه يشير إلى ناحية أخرى فيقول:

"آه من الإنسان القاسي القلب!... إن الله تعالى بعلمه الأزلي يعلم هذا الوضع فيعمد لتوكيد ما يريد بيانه إلى القسم.

على الإنسان أن يستحي من هـــذا ويخجل، ويتصبب عرقا، وترتجف شفتاه، وأن يهتز وهو يقرأ مثل هذه الآيات. فرب هذا الإنسان لكي يبين ويشرح له بأن القرآن كتاب كريم، ويبرهن على ذلك يحشد الأدلة تلو الأدلة ثم يضيف إليها قسما عظيما". ثم ينهي تفسير هذه الآية بقوله:

"بسبب كل هذه المعاني، وكذلك بسبب معان لا نعلمها أقسم الله تعالى بمواقع النجوم الذي قال عنه رب العالمين إنه قسم عظيم.

ونحن نؤمن بالمعاني التي لانعلمها تماما كما نؤمن بالمعاني التي نعلمها. لذا نؤمن من كل قلوبنا ونصدق بأنه قسم عظيم".

وعندما يقوم المؤلف الكريم بتفسير الآيات القرآنية التي تحذر المؤمنين من الكفار والمنافقين، يقوم بتحليلات جميلة، فيحذر المؤمنين من حيل هؤلاء ومن المصايد والفخاخ التي يضعونها في طريق المؤمنين ويقول:

"والذين انجرفوا في تيار الإلحاد فأصبح الكفر طبيعة راسخة عندهم وكذلك المنافقون هم مثل الشيطان تماما. ففي ظروف معينة لا يترددون من ذكر الله والدين على لسانهم يريدون بذلك التقية واستغفال الآخرين. ويبدون في صورة المصلحين والصالحين، ولكنهم يحملون على الدوام حقدا لاينطفئ ضد المؤمنين، ويبحثون على الدوام عن طرق ينفسون بها عن هذا الحقد والغيظ. وفي الأوقات التي لا يستطيعون فيها تنفيذ ما ينفس عما

obeikandi.com

يعتلج في صدورهم من غل تراهم يخفون حقدهم وراء ابتسامة صفراء أو بيانات وأقوال لينة، ويتظاهرون أنهم ديمقراطيون. وعندما يصلون إلى القوة التي تمكنهم من فعل ما يريدون تراهم يقولون: "إن الحق للقوة". أما الديمقراطية فتصبح آنذاك أمرا خياليا أو "فنطازيا"، ثم يرتكب من المساوئ ما لا يخطر على البال.

إن الثقة بمثل هؤلاء تعد عدم احترام لشعور الثقة. أما الخوف من هؤلاء فيعد عدم ثقة بالله تعالى. وعلى المؤمن أن يكون دائما مفتوح الصدر بالحب للجميع، ولكنه لا يغفل ولا يدير ظهره لامثال هؤلاء، وعليه في جميع الأحوال أن يلتجئ إلى الله تعالى من شرهم".

ثم يختم تحليله قائلا:

"ولكونهم كاذبين وذوي وجوه عديدة، ويسلكون سبيل التقية والمظهر الكاذب كانوا يشكون في كل شيء حتى من أكثر التصرفات براءة ومن جميع أنواع الأعمال القائمة على أطهر الأحاسيس والافكار، ويحسبونها ضدهم، وينظرون إلى الناس بمنظار أحاسيسهم ومشاعرهم العقربية. صدورهم مملوءة بالخيانة لذا فهم في خوف دائم حسب قاعدة "الخائن خائف".

هؤلاء هم الأعداء الحقيقيون لأهل الإيمان، وعلى المؤمنين –مع احتفاظهم بأسلوبهم الإيماني– ألا يقصروا في صيانة أنفسهم منهم وحمايتها".

وعندما يتناول المؤلف الآية التي تتحدث عن المرتدين يأتي بتحليل نفيس. والذي يقرأ هذه الآية قراءة سطحية قد يحسب أنه فهم مرادها ومعناها، ولكنه عندما يقرأ تحليل المؤلف وتفسيره يدرك أن هذه الآيات تحتوي على معانٍ أعمق مما كان يحسب. والآية هي آية:

﴿كَيفَ يَهدي اللهُ قَوماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ٨٧) ويقول في تفسيره: "إن الذين يقفون بجانب الظالمين المؤيدين للكفر وللباطل مع أنهم

شهدوا ورأوا جمال الحق وقبح الشر وشناعته ليسوا إلا أشخاصاً منحرفين وظالمين. هؤلاء أفراد بؤساء انحرفت فطرتهم وتشوهت وفقدوا قابلية الإهتداء إلى درجة أن الله تعالى لا يجعل لهم نصيبا من الهداية ولا يهديهم إلى سواء السبيل. لا يهديهم لأن أمثال هؤلاء دخلوا في غمرة حركة مبتعدة عن مركز الإسلام، وفي حالة نفسية ترافق هذا الابتعاد وتتسم بمعارضة واتهام المركز الذي يبتعدون عنه، مما يؤدي إلى تعميق اسوداد قلوبهم. وهم يحسبون أنهم بعملهم هذا وإظهارهم المؤمنين -الذين يدعون أنهم يعرفونهم حق المعرفة لأنهم كانوا من ضمنهم- بشكل سلبي يقومون بخدمة الكفر والالحاد وتقوية روحه المعنوية، ويقومون في الوقت نفسه بإغراق المؤمنين في الهم والحزن.

غير أن الله تعالى الذي وهب للأسلام نورا متميزا هو كنور الشمس بالنسبة للأديان الأخرى سيجعل هؤلاء المبتعدين عن هذا النور في تيه دائم، لايهتدون إلى شيء أبدا وسيصرفون أعمارهم وحياتهم في هذه العماية لايجدون شيئا ولا يهتدون إلى أي شيء. وسيكونون أنموذجا سيئا للأفراد والجماعات الضالة".

أحيانا يقوم المؤلف بإيضاح مسألة قد يساء فهمها. فمثلا نعلم أن تبليغ الحقيقة للآخرين والقيام بنصحهم شيء أساسي في الدين، ولكن بعضهم قد يسيء فهم آية ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى: ٩) ويقول: "لقد قمت بالتذكير فلم يفهموا و لم ينتفعوا... هم قوم لا نفع منهم، ولا أمل فيهم... إذن فنصائحي لا تنفعهم، والآية تقول بأن أنصح عندما تفيد هذه النصائح... إذن فلم يبق هناك شيء استطيع عمله". أمام هذا الفهم الخاطئ يقوم المؤلف بشرح القصد الحقيقي من هذه الآية فيقول بأن الأصل في التبليغ وفي الخدمة الإيمانية هو الثبات فيقول:

"ولكون الرسول ﷺ مكلفا بالتذكير والتبليغ دون قيد أو شرط فإن آية ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لا تفيد التقييد بل تفيد تأكيد هذه المهمة وهذا

openkandi.com

التكليف، لأن هذا الكلام البليغ والقوي النازل والموحى به لا بد أن يكون له نفع حتى ولو بالقوة "أي بالاحتمال في المستقبل". أما استفادة السامعين له أو عدم استفادتهم فعليا فهو موضوع آخر. إذن نستطيع أن نقول استنادا إلى هذه الآية: انصح لأنه لابد أن تكون هناك فائدة من النصيحة".

ولا يسعنا ألا أن نشير إلى تفسيره لآية ترسم إطارا لحياة المسلم ولمفهوم عمله وراحته وهي آية: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ حيث نراه يقول:

"تقدم هذه الآية الكريمة للمسلم فلسفة حركية مهمة ودستوراً للحياة. أجل يجب أن يكون المؤمن في حركة دائبة في كل حين. في حركة عندما يعمل، وفي حركة أيضا عندما يرتاح. وبعبارة أخرى عليه أن ينظم نفسه وفق خطة لايوجد فيها أي فراغ في حياته.صحيح إنه كإنسان يحتاج إلى الراحة، لذا من الطبيعي أن يرتاح. ولكن يجب أن تكون حتى هذه الراحة راحة نشطة وأيجابية فمثلاً من يتعب من القراءة والكتابة يستطيع أن يرتاح بالنوم أو بتغيير وتبديل الجو كأن يقرأ القرآن أو يصلي أو يلعب الرياضة أو يتسامر أو يمزح مع الآخرين المزاح المقبول شرعا... الخ. وعندما يتعب من هذا يرجع مرة أخرى إلى القراءة. أي يكون في حركة مستمرة ودائبة يترك مشغلة من المشاغل لمشغلة أخرى. أي يستريح وهو يعمل، ويعمل وهو يستريح.

وإذا قمنا بتقييم هذه المسألة في إطار الخدمة الإيمانية يمكن القول بأننا كمؤمنين نكون -كما قيل على الدوام- ضمن ألطاف قسرية وجبرية. وحسب أسلوب الخدمة الإيمانية المقبول من قبل، والمطبق على الدوام نرى انعكاس هذا الدستور القرآني في حياتنا كمؤمنين دون أن نشعر. وفي السابق قام بعض أغنيائنا الباحثين عن الرضا الإلهي بالتبرع للطلاب الأذكياء من الفقراء وإسكانهم في الأقسام الداخلية خدمة للأمة. وبعد مدة شعروا بأنهم

قد أدوا مهمتهم وركنوا إلى الدعة وإلى مشاغل الحياة الاعتيادية فإذا بأبواب خدمات جديدة وواسعة تنفتح أمامهم وتدعوهم لتذوق أذواق أداء هذه الخدمات الرحبة. كانت القلوب المخلصة تتساءل بقلق: "أيمكن أن تنتهي هذه الآنواع من الخدمات الإيمانية؟ ألاتوجد هناك ساحات أخرى وساحات أوسع؟" فإذا بساحات خدمات أخرى وفي مناطق جغرافية أوسع تنفتح أمامهم، وإذا بهم يتذوقون لذة أداء هذه الخدمات في سبيل الله، ويترشفون كؤوسها مترعة. ثم فتح الله أمامهم ساحات خدمة بأبعاد ومناشط أخرى أيضا. والخلاصة أنه ما من عهد ظهر فيه ظن قاتل بأن الخدمات قد فرغت وإن أبوابها قد قفلت إلا وقيض الله تعالى أشكالا مختلفة من الخدمة في سبيله وفي ساحات مختلفة. لذا فللتعبير عن مثل هذا المعنى قلت باننا مجتمع "للالطاف الجبرية". إذن فنحن كمؤمنين وإن لم ننتبه إلى معاني ومحتويات الآية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ (الانشراح: ٧) إلا إنها تبدو وتظهر في حياتنا بشكل منتظم ومستديم.

وإذا دققنا النظر في أصل المسألة نرى أنه لايوجد في الحقيقة بديل عن هذا بالنسبة للمؤمن. فأولاً إن كل نعمة من النعم التي أنعمها الله تعالى على المؤمن كبيرة جدا. فكوننا من البشر نعمة وكوننا في صحة وفي عافية نعمة أخرى. وكوننا نشعر ونحس بهذه النعم -نتيجة إيماننا- نعمة متميزة. أي كل شيء نعمة: أكلنا وشربنا... انتظارنا للحياة الأبدية... انتظارنا للنعم الأبدية نعمة... كل شيء... كل شيء في الحقيقة نعمة. ولكن الإلفة والعادة تنسينا قدر وقيمة كل هذه النعم. لذا لا نؤدي شكرها كما يجب. كل هذه النعم في كفة وهناك نعمة أخرى لا نلتفت إليها وهي: عندما ندير أنظارنا فيما حولنا نجد وجود حروب ساخنة في العديد من الأماكن، ونرى الآلاف من الأشخاص يبكون ويعانون من هذه الفواجع، ونرى المسلمين في العديد من البقاع يتعرضون للظلم، ولقهر واستبداد الحكام الذين لا يكفون عن ظلم المؤمنين. وبينما تجري هذه الحوادث المفزعة حوالينا نستطيع نحن

أداء واجباتنا وأداء الفرائض بحرية دون التعرض للظلم والاهانة. هذا طبعا بالنسبة لحالنا في الماضي وبالنسبة لكثير من البلدان الإسلامية. أليس هذا الأمر نعمة كبيرة؟ أولا يستوجب هذا الشكر؟ إذن يجب أن نسرع من عمل إلى آخر، وأداء واجباتنا -ضمن منظومة الخدمة الجماعية- دون كلل أو ملل، والاستمتاع بتذوق اللذة المعنوية والروحية ونحن نؤدي هذه الخدمات.

أجل ليس من حق المؤمن القول: "لقد أديت ما عليّ ولم يبق أمامي عمل شيء آخر"... لا يجوز له أن يقول هذا وينسحب من الميدان للراحة والدعة. وظيفة المؤمن بعد قيامه بإتمام عمل خيري المبادرة إلى عمل خيري آخر. عليه أن يرتاح بالعمل، وإن تكون راحته مقدمة لعمل آخر، وأن يعيش اليسر في العسر، وإن يقيم اليسر والعسر في اتجاه المشاعر الميتافيزيقية، وإن يتصرف على ضوء أن العالم المادي يكمل العالم اللامادي، وأن العالم اللامادي يكمل العالم المادي، فيعيش كإنسان لم يدع هناك أي فجوة في حياته".

وكما يفهم من هذه الاقتباسات فهذا الكتاب مملوء بالتوجيهات التي تغني حياة المؤمنين وتملأها حركة وفعالية. علما بأن أهم أساس من أسس التفسير هو مفهوم "التفسير الديناميكي" الذي اهتم به المفسرون من أمثال الأستاذ سيّد قطب والاستاذ أبو الأعلى المودودي. لأن القرآن الكريم ليس بكتاب دين بعيد عن الحياة وعن الحركة والنشاط الذي تزخر بهما الحياة. بل كتاب يهدف إلى تطبيق تعاليمه في هذه الحياة، وهو كتاب يتجاوب مع الحياة ومع الأحداث تجاوبا متقابلا، ونـــزل منجما وعلى مراحل لكي يقود هذه الحياة.

نضطر هنا إلى التوقف عن الاقتباسات التي قمنا بها بهدف التعريف بهذا الكتاب، لكي لا ننقل معظم الكتاب. وقبل اختتام هذه المقدمة نود الإشارة إلى أن المؤلف مع رغبته بتجنب استعمال المصطلحات الفنية للتفسير، ومحاولته تبسيط المواضيع قدر الإمكان بأسلوب سهل وواضح، إلا أن بعض

obeikandl.com

القراء قد يجدون صعوبة في فهم بعض المواضيع. لذا ننصح مثل هؤلاء القراء إعادة القراءة بتمهل ودقة. أو الاستعانة بمعجم أو بشخص له إلمام بهذه المواضيع. فإن لم يفد هذا أيضا، فهم مثل شخص دخل بستانا يحوي أشجارا مثمرة عديدة فتناول منها ما أشبعه، ثم قال: "ليس من الضروري أن أقطف وآكل كل ثمرة هنا... حسبي هذا، وليأكل غيري من الثمار التي لم أصل إليها". لأن "فوق كل ذي علم عليم". والله أعلم.

ولا يدعي المؤلف أي ادعاءات طويلة بكتابه هذا فهو يقول: "إن تفسير القرآن بالتفصيل يحتاج إلى مجلدات عديدة، بينما لا يقدم هذا الكتيب إلا نظرات مختصرة ذكرناها بشكل ارتجالي وسطحي في بعض مجالسنا حسب ورود المناسبة، هذا علاوة على أن هذه النظرات تعود لشخص تبهت أجمل الحقائق عند تناوله إياها."

ومع أننا نكبر تواضعه هذا إلا أننا نقول استنادا إلى ما قاله علي بن أبي طالب ﵁: "إلا فهما يؤتاه الرجل في القرآن". إذن فإن من وظيفة كل مؤمن أن يفهم القرآن فهما خاصا به بشرط أن يكون عالما بشروط علم التفسير وأسسه وقواعده. ونحن إذ نهنّئ المؤلف الكريم على جهده ونجاحه في نظراته لمعاني القرآن، ندعو له بالصحة والعافية، وأن يوفقه الله تعالى في خدمته العلمية للإسلام، وأن يجزيه رب العالمين وصاحب الكرم والجود خير الجزاء على مؤلفه هذا، وأن يوفق المسلمين للاستفادة منه.

أ.د. **سعاد يِلدرم**

جامعة مرمره – إسطنبول/تركيا

مقدمة المؤلف

القرآن هو الضوء اللامع للكلمات والحروف في عالم الأزل والأبد. هو صوت الملكوت الذي يخاطب فكر الإنس والجن. وعندما يتحول إلى لؤلؤة خارقة الجمال داخل صدفة لامعة، يرى فيه أبطال البلاغة والأدب جمالا لا يبهت، وحسنا لا يزول. وسيبقى هذا الكون الكبير -الذي هو معرض للجمال والفن والألوان الإلهية المتناسقة والمتناغمة- موطن الخوف والرعب تجول فيه العفاريت والأرواح الشريرة، مع أنه -أي الكون- يعد كتابا يفشي كل سطر فيه سرا من أسرار الملأ الأعلى، وستبقى سطور هذا الكون وأوراقه مبعثرة ومشتتة حتى يأتي اليوم الذي يتحول فيه القرآن إلى نور ينهمر على وجه هذا الوجود. ويُجمع الناسُ -عدا أصحاب الفكر التقليدي- أنه عندما أشرق القرآن كشمس ساطعة زالت الغيوم السوداء التي كانت تجثم على الدنيا، وظهر الوجه الضاحك للوجود، وانقلبت جميع الأشياء إلى فقرات وجمل وكلمات لكتاب مؤنس ومبهج لقارئه. عند سماع صوته انهمرت الأنوار على عيون القلب، وبدأت المشاعر التي فارت في الأرواح، والألسنة التي أصبحت ترجمانا لهذه المشاعر بإنشاد أناشيد النور.

أجل!... فاعتبارا من اليوم الذي أضيئت به العيون والقلوب، كم من لغز في الكون كان ينتظر الحل منذ آلاف السنوات، وكم من مشاكل معقدة متداخلة بعضها مع البعض الآخر كانت تنتظر الحلول حلت الواحدة منها إثر الأخرى، وظهرت العلاقة الصحيحة بين الإنسان والوجود والخالق واضحة وضوح البدر التمام، ولبست كل الألغاز والمعميات لباس المعاني وانتظمت في مدارات الحكمة.

obeikandi.com

القرآن هو قمة الفكر المتين والصحيح، وأساس التعبير الدقيق، وقاعدة للتعبير المنطقي. وكما كان هذا الفرقان العظيم سيد الكتب السماوية وغير السماوية كان المخاطب الأول له سيد الأنبياء والمرسلين. الكتب السابقة جاءت لكي تضع إشارات على طريقه وأعلاما، أما الكتب التي جاءت بعده فلكي تقوم بشرحه ووضع الهوامش والحواشي كل حسب خريطة روحه وغنى ذلك الروح. عرفه من قبله بصورته التي بشر بها الأنبياء، وعرفه الذين جاءوا من بعده بصورته المنــزلة الملموسة، ورأوا التأثير الكبير الذي أحدثه، والانقلاب العظيم الذي حققه، فانحنوا أمام بلاغته التي لا تضاهى، واعترفوا بأنه سلطان الكلمة والإعجاز البلاغي. وعندما كان القرآن يتنــزل إلى الدنيا بموجات مختلفة من الأنوار لم يصرف أصحاب القلوب النيرة نظرهم عنه أبدا، ولم يلتفتوا عنه، بل ارتبطوا به بكل جوارحهم وأرواحهم... أجل!... بينما كان ينــزل من السماء كشلال ليملأ القلوب العطشى، فتح أصحاب القلوب الواعية صدورهم له ولم يضيعوا قطرة واحدة منه.

استطاع هذا القرآن أن يوصل صوته إلى أبعد زاوية من زوايا الدنيا في قفزة واحدة، وأن يسكت كل أصوات الشؤم، وأثار في كل قلب يبتغي الحق ولا يملك فكرا مسبقا عواطف جياشة كأنها أصوات خرير الكوثر، وأطفأ في القلوب التي فتحها نيران الهجر، وفجر في كل روح أمل الوصال والشوق إليه. الطبائع الباردة تحرك فيها نبض الحرارة، أما القلوب المتولهة بحب الأبدية والخلود فقد أنست به وأطمأنت إليه.

وإذا كان هناك من بقي جديدا ونضرا على الدوام في هذه الدنيا الفانية التي يقدم فيها كل جديد ويبلى فيها كل نضر، ويبهت فيها كل لون، فهو القرآن. فهو الكتاب الوحيد الذي استطاع أن يقف منذ نــزوله في وجه جميع الأعاصير والعواصف التي هبت، والأمطار والثلوج التي سقطت، وفي وجه جميع الظروف القاسية التي ظهرت وبدت أمامه، واستطاع أن يحافظ على أصله ككتاب سماوي وحيد دون تغيير أو تحريف. لذا فما أن يرتفع

صوت القرآن من حنجرة قارئ حتى نشعر وكأنه نـــزل الآن من السماء وكأننا مدعون إلى وليمة الهية آتية من الجنة، وعندما ينثر اللآلي تشعر القلوب المؤمنة أنها قد سمت واستغنت عن جميع ثروات الدنيا. القرآن قلادة بيان منظومة من الكلام الإلهي، وفيض من العلم الذي يشكل الحدود النهائية للإدراك البشري، وخارطة لكل الوجود مرسومة ومزينة ومحاكة بالحرير اللاهوتي. عندما يسمع صوته في أي بقعة يبدو كل كلام وكل تعبير آخر نوعا من الضوضاء لا غير. وفي البقاع التي ترتفع فيها أعلامه يغمر النور قلوب المؤمنين، وتنـــزل الحجارة على رؤوس الشياطين، ويعيش الربانيون هناك أعيادا دائمة.

ربط الله تعالى رب العالمين ذو القوة المتين سعادة الدارين بإرشاده وتوجيهه. فلا يمكن الوصول إلى الهدف من دونه، ومن يستغنِ عن إرشاده ووصاياه ولا يلتجئ إليه يَضِعْ في الطرق ويَتِهْ. هو آخر وأكمل كلام يهدي من اتبعه وسار في إثره، ويوصله إلى الغاية والهدف. ومع أنه يُتلى بكل سهولة صباح مساء فلا يُستطاع الإتيان بمثله. ومن يستمع إليه بأعماقه يشعر أنه قد سمع كل ما يجب سماعه، وأصوات هؤلاء تتداخل على الدوام مع أنفاس الملائكة.

حتى نـــزوله وتشريفه للأرض كان كل نبي يشعل مشعل الهداية التي يحملها من مصدر نوره وضيائه، وحول الصحارى القاحلة حوله بقطرات قليلة منه إلى جنان وارفة الظلال.

بل إن العصور المظلمة التي جال فيها ظله أصبحت عصورا ذهبية. اما العصور التي تعرفت به عن قرب وعاشته فقد تحولت إلى ما يشبه الجنة. من وهب نفسه له سما إلى مرتبة الملائكة، وأصبح كل ما في الكون من أحياء وجماد أليفا عنده.

من فهم القرآن حق الفهم تصبح البحار الواسعة كقطرة ماء، ومن تنور

بنوره تتحول الشمس تجاهه إلى مجرد شمعة. أنفاسه التي نشعرها في أعماق قلوبنا تحيينا، وضياؤه الذي يغمر الأشياء يجعل كل موجود برهانا للحق تعالى. من يصله صوته -وإن كان في أبعد أرض وأخفاها- تدبّ فيه الحياة وكأنه سمع صور اسرافيل. والقلوب التي تستمع لصوته وبلغته الخاصة به تتوثب حركة ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٢٠). أجل هو بصائر ورحمة للذين لم تمت قلوبهم.

لم يكن القرآن في أي يوم من الأيام -مثل غيره من الكتب- كتابا بقي ضمن اطار زمن أو مكان معين من طفولة الإنسانية. بل هو معجزة كبيرة وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، وتلبي جميع المطالب الإنسانية بدءً من العقائد وانتهاءً بأصغر الآداب الاجتماعية. وهو يستطيع حتى اليوم تحدي الجميع وتحدي جميع المتحديات.

قام في العهد الذي نـــزل فيه بمواجهة جميع اعتراضات مخاطبيه، وتحداهم أن يأتوا بكتاب، أو حتى بسورة أو بآية من مثله. ذُهل منه المعارضون الأولون له، وسُحروا من بيانه ومن بلاغته، حتى اتهموا الرسول ﷺ بأنه ساحر، وأنه شاعر. وإزاء أخباره الغيبية التي أتى بها من وراء الأستار فقدوا صوابهم فقالوا عنه إنه كاهن، ولكنهم عجزوا تماما عن الإتيان بمثله. أي إن أبطال الشعر والنـــثـــر والخطابة وأعلامها من معارضيه اضطروا إلى الصمت والخرس والانسحاب إلى جحورهم. أما منكرو هذا العصر المعاندون فعلى الرغم من توارثهم روح المعارضة والإنكار من هؤلاء السابقين، إلا أنهم على الرغم من أنواع الديماغوغية والديالكتيك وجميع أنواع المجابهة والاعتراض لم يستطيعوا انجاز شيء خارج إظهار العجز والغضب. تغير الزمان وتعاقبت العصور واختلفت القناعات ووجهات النظر، وحميت حدة المعارضة والصراع، ولكن القرآن لا يزال واقفا كالطود الشامخ وكالبحر الواسع وكالسماء التي لا تحدها حدود تجاه جميع المعارضين وتجاه جميع الاعتراضات. وهو مستمر في بث

روعه وروعته في القلوب، وفي هداية العقول. منذ نـــزوله قبل أربعة عشر قرنا وتربعه على عروش قلوبنا تقلبت عهود كثيرة ظهر فيها العديد من مشاهير البلغاء، ومدارس فكرية عديدة، ونظم عديدة وفلسفات مختلفة. وقد حاول العديد منها هدم القرآن واستعملوا لهذا الغرض كل ما لديهم من وسائل ومن سحر الكلام من بيان ومن بلاغة لهدم القرآن، وخاضوا على الدوام غمار الحرب معه، ولكنهم غُلبوا على الدوام وارتدوا على أعقابهم خائبين أمام الأسس القوية المتناسقة والمنطقية التي وضعها للكون وللوجود وللانسان، والإيضاحات العميقة لهذه العلاقات. أجل لقد أتى القرآن بنظرة متميزة للكون وللأشياء وللإنسان باسلوب غاية في الروعة والسحر. لأنه يتناول الإنسان ككل ضمن الوجود بأكمله، ولا يهمل أي شيء، بل يضع كل شيء مهما كان صغيرا في مكانه المناسب. الأجزاء فيه مرتبطة ارتباطا وثيقا ودقيقا بالكل... والأجوبة المختلفة عن أدق الأسئلة التي تخطر على بال الإنسان في هذا المعرض الكوني الهائل ترد فيه. وبينما يعمد إلى تحليل أدق المسائل الموجودة سواء في عالم الشهود أم فيما وراء الأستار حتى أدق تفاصيلها، لا يدع هناك أي تردد أو شبهة أو علامة استفهام في العقول... أجل! إن القرآن في جميع هذه التفاصيل الدقيقة التي يوردها لا يدع أي ثغرة يؤتَى منها لا في العقول ولا في القلوب ولا في المشاعر ولا في المنطق، لأنه يحيط بعقل الإنسان وبأحاسيسه وبمشاعره وإدراكه بشكل يجعل الإنسان وهو تحت تأثير هذا العشق يكاد يخرج من هويته الإنسانية سامياً إلى الذات العلية. ومثل جميع السائرين في الطريق إلى الله تعالى ينتقل من الدهشة إلى الذهول ومن الذهول إلى بحر من العواطف المتلاطمة التي تجعله ينحني من الخشية وهو يقول ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (الكهف: ١٠٩). إذن فهذا هو القرآن... المفتاح الذهبي لخزائن الكلمات التي لا تنفد ولا تنتهي، والإيمان هو شفرات أو أسنان هذا المفتاح السحري. ولا أعتقد أن من يملك مثل هذا المفتاح وهذه الشفرات

سيحتاج إلى أي شيء آخر بخصوص مسائل القواعد والأسس العامة المتعلقة بالإنسان والوجود والكون.

ولا يتوهمن أحد أنني بكلماتي العاجزة آتٍ بمديح للقرآن، فمن أنا لكي أمدح القرآن!!

وكما قال الشاعر:

من يستطيع وصفه سوى الله الوصّاف

الملائكة الكرام المصطفون صفا صفا

يصفونه ويعظمونه حتى تحسبهم في طواف

وقد يظهر من لا يستطيع رؤية هذه الميزة الخارقة في بلاغة وجواهر كلامه، ولكن من الواضح أن كل من يسأل ضميره يعلم أنه لم يخطئ في أي وقت في اعتقاده بإعجازية القرآن البلاغية، ولا سيما إن أجال ناظريه وشاهد التأثير العالمي للقرآن.

لقد أحدث القرآن في اول عهده بالنـــزول وأول عهده بتشريفه الدنيا تأثيرا لا يمكن تصوره في الأرواح وفي العقول أيضا، بحيث أن درجة الكمال التي وصلت إليها الأجيال التي نشأت في جوه النوراني كانت معجزة قائمة بذاتها لا نحتاج معها إلى ذكر أي نوع آخر من معجزاته. ولا يمكن العثورعلى أي أمثال لهم في مستواهم من ناحية التدين والتفكير وأفق الفكر والخلق ومعرفة أسرار العبودية. فالحقيقة أن القرآن قد أنشأ جيلا من الصحابة آنذاك لا نبالغ إن قلنا إنهم كانوا في مستوى الملائكة. وحتى اليوم فهو ما يزال ينير قلوب المتوجهين إليه الناهلين من نبعه، ويهمس في أرواحهم أسرار الوجود. والذين يدعون أنفسهم بكل أحاسيسهم ومشاعرهم وقلوبهم وقابلية إدراكهم تسبح في جوه الذي لا مثيل له سرعان ما تتغير عواطفهم وأفكارهم، ويحس كل واحد بأنه قد تغير بمقياس معين وأنه أصبح يعيش في عالم آخر. أجل! ما

obeikandl.com

أن يتوجه إليه الإنسان من كل قلبه، حتى لا يستطيع بعد ذلك الخلاص من تأثير سحره وجاذبيته. إن القرآن يتناول الطالب الذي جذبه نحوه فيعجنه ويشكله من جديد ويجعل منه شخصا آخر تماما... شخصا رقيقا ذا حساسية مرهفة، إلى درجة أن الإنسان يتأكد بأن أي تغيير لا يكون إلا به، بل يمكن في أحيان كثيرة تحقيق العديد من الأمور والتي كان يخيل من قبل أنها مستحيلة التحقيق، حيث تتحول هذه الأمور في ظله إلى حالة اعتيادية مما يُذهل الجميع. والقرآن يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لله الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ (الرعد: ٣١) لأنه أجرى في القلوب والعواطف والأحاسيس وفي العقول تأثيرا بالغ المدى بحيث أن هذا التأثير لا يقل غرابة عن تسيير الجبال أو عن تقطيع الأرض أو تكليم الموتى، أو عن إحياء أجساد بالية منذ آلاف السنين.

كان كل صحابي بطلا في عالم القلب والروح، وكان مجتمع الصحابة مجتمعاً متميزا مباركا نشأ في ظل فيض القرآن وبركته. واستطاع هؤلاء الصحابة اجراء تأثير عميق وكبير على قسم كبير من العالم، حتى إن عملهم هذا ما كان يقل من ناحية الروعة والخارقية عن قلع الجبال عن أماكنها أو سقي الأموات ماء الحياة أو ربط السماء بالأرض. وما كان هناك أي مجتمع آخر يمكن مقارنته بمجتمعهم الفريد هذا. فهؤلاء الصحابة الذين عجنوا بروح القرآن وتشكلت أنفسهم حسب مبادئه السماوية، أي أصبحوا من ناحية الروح والمعنى ترجمانا للقرآن، استطاعوا تحقيق المستحيلات وفتحوا به طرق الخلود أمام الأرواح الميتة، وغيروا وجه الدنيا، ونقلوا الإحساس بلذة عالم الروح إلى المجتمعات التي احتكوا بها وتعرفوا عليها، وكسروا الأقفال الموجودة على الأفكار وفوق الأفواه، ورفعوا الإنسان مرة أخرى إلى المرتبة الرفيعة التي رفعه الله إليها وشرفه بها، وقدموا نظرة جديدة وتفسيرا جديدا لموقع الإنسان في الكون بين الموجودات، وركزوا الأنظار على السر العميق الموجود بين الأوامر التكوينية وبين القواعد الشرعية، شارحين وموضحين

الغاية والحدود النهائية للقلب والإرادة والأحاسيس والمشاعر، ومحركين وباعثين أصول وأسس القيم الكامنة والنسبية الموجودة في روح الإنسان، لكي يوجهوا الإنسان العادي إلى طريق الإنسان الكامل، فنجحوا في جعل الإنسان يحس في كل ما يقع بصره عليه أو يصل إليه بأحاسيسه، أو يحس به في قلبه أصابع الإرادة والقدرةالالهية اللانهائية، أي ربط كل شيء وإرجاعه إلى صاحبه الأصلي.

إن كان المؤمن مرتبطا بهذا المقياس بقلبه وروحه وبمشاعره وبأفكاره وبعقله بالله يكون قد ابتعد تماما عن سطحية الارتباط بالجسد وبمطالبه، وينظر إلى الحياة من زاوية أخرى ويرى لها طعما آخر، أي ينتبه إلى ما وراء افق هذه الحياة. ومثل رجل الحقيقة هذا يرى ويشاهد في كل شيء في هذا الوجود العلم الإلهي مرفرفا عليه، ويد القدرة عاملة فيه، فيحس برجفة، وتتداخل في نفسه مشاعر الأمل والقرب مع الخشية والرهبة. ومع كونه يعيش في الدنيا إلا أنه يحس وكأنه في ذروة من ذرى الآخرة. عندما يأخذ نفسا يحس بالأمل والترقب، وعندما يعطي نفسا يحس بالمخافة والمهابة. ويتجول دائما في الساحة التي رسمها القرآن ويعيش حياته في ظلال القرآن وألوانه.

إيضاح القرآن ضمن هذا الإطار بالأمثلة يحتاج إلى مجلدات. بينما ما حاولنا تقديمه في هذا الكتيب مجرد مقتطفات من الأجوبة الارتجالية على الأسئلة التي طرحت في مجالس ومسامرات مختلفة وحسب مناسباتها. ولا نكتم هنا أن هذه الأجوبة صدرت من شخص تبهت في شروحه جميع الأفكار والأحاسيس مهما كانت رائعة وسامية.

أعتقد أن العديد من الحقائق السماوية ربما لبست هنا لباسا أرضيا. لذا كان على كل من قرر صرف بضع ساعات مع القرآن بقراءة هذا الكتاب أن يضع هذا نصب عينيه لكي لا تهتز مهابة القرآن في ذهنه. ومع أن هذا

obeikandi.com

العمل والجهد حاول أمرا مستحيلا، لأنه يشبه محاولة شرح البحر بقطرة واحدة، أو إراءة الشمس بذرة واحدة، إلا أننا نقول بأن لحن ناي من قبل راعي غنم قد يجد له مكانا في عالم الموسيقى مهما كان متواضعا. لذا نتمنى أن تحوز هذه السطور –التي يمكن أن تصدع الرؤوس– بعض القبول.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا

وصلى الله على سيدنا المُقتدى وأصحابه ذوي القَدرِ والتقى.

obeikandi.com

مدخل

يوجه القرآن خطابه للإنس وللجن أجمعين. يأمرهم وينهاهم ويضع بعض المحرمات أمامهم، وينقل كلامهم وكلام الشياطين. وهو في كل هذا معجز على الدوام. ولا يكمن إعجاز القرآن هنا في مجرد النقل، بل في كيفية هذا النقل، والعناصر والصور والنقوش التي يستعملها ويختارها. والناحية الإعجازية الأخرى فيه هي أن هذه الأخبار التي ينقلها غيبية.

أجل! فقبل كل شيء فإن اختيار القرآن للعناصر والأدوات اختيار رائع وخارق للعادة. ثم إن القرآن يستعمل هذه العناصر والأدوات في اسلوب مختلف معجز لا يمكن الوصول إليه ولا حتى مقاربته. اُسلوب يخرج عن طاقة الإنس والجن. ولكن لكي ندرك هذه الناحية علينا النظر إلى آيات القرآن نظرة واسعة وشاملة، ولكي نوضح هذا الإعجاز علينا إعطاء بعض الأمثلة وبعض التفاصيل:

كثيراً ما نحس بأحاسيس ومشاعر في أعماق أرواحنا، ولكننا نعجز عن التعبير عنها، عند ذلك نئن تحت ألم العجز ونقول كما قال الشاعر "محمد عاكف":

أبكي وأنوح... ولكن لا أستطيع إثارة البكاء!

أحس بالألم... ولكن لا أستطيع بث لواعجي

آه من قلبي الأخرس!... كم أشكو منه!

أجل! هناك العديد من الأشخاص الذين لا يستطيعون التعبير بدقة عن

obeikandl.com

أحاسيسهم العميقة عندما يتحدثون أو يكتبون فيطوون قلوبهم على آلام هذا العجز... وهذا العجز قد يكون عجزاً نسبياً أو مطلقاً لمن لا يستطيع التعبير بكل سهولة ويسر عن كل شئ، ويظهر هنا في الجهة الأخرى الإعجاز النسبي أو المطلق كذلك. فإن كان هناك إعجاز مطلق فهو خاص بالقرآن الكريم فقط.

فإن تناولنا القرآن من هذه الزاوية نستطيع أن نقول: "سواء أتكلم القرآن بلسان الشيطان أو الجن أو الملك أو فرعون أو نمرود أو شدّاد فإن الأسلوب المستخدم في البيان والإفصاح يعود للقرآن تماماً. وهذا الأسلوب خارق للعادة إلى درجة أن بابه يظل مفتوحاً لجميع المعاني الإشارية والرمزية، ويكون صالحاً لتفاسير واسعة، ولا يوجد أي بيان آخر يستطيع التعبير عن غايته بهذا الأسلوب ولا استعمال مثل هذه الأدوات والعناصر والصور والأشكال بهذه الروعة المعجزة.

نستطيع -إن أحببتم ذلك- تناول الموضوع من زاوية مختلفة:

لكل كلام توجهات مختلفة نحو اللطائف الربانية في الإنسان كالقلب والسر والخفي والأخفى، حيث يستهدف الوصول إلى هذه اللطائف. فإن كان فيه تناقضات بين هذه المراتب من ناحية المعنى دل ذلك على نقص في هذا الكلام. وهذا النقص موجود -بنسب مختلفة- في البيان البشري بأجمعه. أما القرآن فبريء من مثل هذا النقص ومنــــزّه عنه.

وهنا يرد شيء آخر كذلك، وهو إن كانت المعاني الواردة إلى القلب قد نخلت وصفيت من خلال التخيل والتصور والتعقل وحافظت على نفسها ووصلت إلى مرحلة اللفظ والإفصاح عُدّ هذا بياناً ممتازاً. أحياناً لا يستطيع الكلام تجاوز هذه المراتب دون تغيير وتبديل، فيبقى في إطار الحديث للنفس، وتفوته فرصة الوصول إلى مرحلة اللفظ والتعبير الخارجي. أما تعبير علام الغيوب -الذي يعلم السر وأخفى- عن هذا الحديث النفسي الصامت فمسألة

obeikandi.com

أخرى لا نريد الخوض فيها، لأننا نريد هنا الاقتصار فقط على الكلام الملفوظ: إن كان الكلام قد أُستُطيعَ التعبير عنه كما تم تخيله، أي إن كانت النية وإرادة التعبير متناغمة مع التعبير فمثل هذا الكلام كلام تام وكامل. فإن كان العكس، أي إن لم يستطع التصور احتضان التخيل بشكل كامل والإحاطة به، عدّ هذا التعبير أقل مرتبة من التعبير السابق. فإن لم تستطع ملكة التعقل التعبير عن المعاني المحملة عليها فهذا يعني أنها فقدت بعض أعماق التصور والخيال. وهكذا فالكلام الذي يفقد الشيء الكثير بالنسبة إلى مستوى الخيال الرفيع عند مروره من هذه المراحل والمراتب يُعد كلاماً ناقصاً. أما الكلام الذي يستطيع التعبير عن معاني صاحبه ومفاهيمه ونيته بعمق فهو الكلام الكامل التام. والمثال الرائع الوحيد لمثل هذا الكمال هو القرآن الكريم. لذا يجب البحث عن هذا الكمال في محافظة القران على عمق الخيال والتصور عند قيامه بنقل الكلام عن أي كائن.

وما من أحد يستطيع الإتيان بهذا بمثل هذا الكمال وبمثل هذه الروعة. أجل فما من أحد –سواء أكان ذلك إنساً أم جناً أم ملكاً– يستطيع اصطياد المعاني وهي في مرحلة التخيل والنية، ثم نقلها إلى مرحلة التعبير بمثل هذا الكمال. أي أننا لا نستطيع أبداً النجاح في تحقيق هذه المقاييس في الكلام والبيان. إذن فالبيان القرآني الذي حقق هذه المقاييس بدرجة الكمال بيان يعجز عنه الآخرون، أي هو بيان معجز وإلهي.